بقلم : صوفى عبد الله

هل انا انا ؟

هـذا هو السـؤال الذى بات يحيرنى ...

فكلما نظرت الى نفسى «من الخارج» اتفقت فى الراى مع الناس جميعا فيمن اكون انا .

لا تعجبوا ! فالكائنات كلها لها وجودان : وجود « من الخارج ... » هو ذلك الوجود الذى يراه الناس ويسمعونه ويلمسونه ، ووجود آخر « من الداخل » قد لا يراه أحد ولا يسمعه ولا يلمسه ، لانه وجود « خاص جدا » للكائن نفسه .

وبما انى كائن . فلا بد اذن أن تنطبق على الاحكام العامة التى تسرى على جميع الكائنات . ومن هنا كان من المحتم ان يكون لى وجودان : ذلك الوجود الخارجى الذى يحسه الناس، ووجود آخر لا يحسه الا انا . وفى بعض الاحيان فقط لا فى سائرها !

الى هنا والمسألة — كما ترون — بسيطة جدا ومنطقية للغاية . ولكن الصعوبة تأتى من انى كلما نظرت الى نفسى عابت ما يعيبه كل أحول ! فاحدى عينى انظر الى نفسى من الخارج فاشارك جميع الناس فى النظر الى هذا المخلوق المسجل اسمه فى شهادة الميلاد وله أوصاف بدنية وسلوك وعلاقات ظاهرة معروفة . وبعينى الاخرى ارى مخلوقا آخر . ارانى انا ولكن من الداخل ، ارى انسانا مختلفا جدا عن ذلك الانسان الذى يسمعه الناس ويرونه ويتعاملون به .

ولهذا كان طبيعيا جدا وانا أعانى من هذا «الحول» العقلى — ان أتساءل اى هذين انا ؟ وهل انا الذى يعرفه الناس هو انا حقا ؟

جميع الناس يقولون عنى انى رجل محظوظ ...

وهكذا اقول انا ايضا كلما نظرت الى نفسى من الزاوية التى ينظر منها الناس ، الى ذلك المخلوق المسمى « انا » من الخارج . واجد معهم الحق كله فى ان يصفونى هذا الوصف البهيج الذى لا يخلو من حسد . ولا اكتمكم ان نفسى تبتهج بما يصفونه من الحسد فى بعض الانتهاج .

اراهم على حق كلما نظرت — كما ينظرون — الى اسباب السعادة العامرة التى تحيط بى منذ مولدى .

ومع هذا كله فانا انسان تعيس !

او هكذا اصبحت اراني كلما نظرت بعيني الاخرى الى نفسي من الداخل . ويريد عذابي أن حظي السعيد هو الذي كان بالذات سبب تعاستي والسر في سوء حظي ! .

كلا .. لا تتهموني بالجنون .. اصبروا قليلا لتعرفوا وجهة نظري التي تبرر هذا التناقض الذي يبدو لاول وهلة خيالا او جنونا . وبعد هذا ستحكمون انتم انفسكم اني رجل عاقل ... عاقل جدا ولكنه تعس !..

عمري وسني ...

شباب كالورد ... في السابعة والعشرين !

شكلي ومظهري ؟

دع هذا جانبا ! فحسبك من امري اني ولدت وفي فمي ملعقة من ذهب ، كما يقولون ، وفي وجهي وقامتي كنوز من الذهب ايضا !

ولدت محبوبا وسيما بالوراثة . وولدت وجيها مرموقا معافى من العمل والكدح بالوراثة ايضا . ومرشحا لمصوبة ارفى الأندية والأوساط بالوهل السالف الذكر ..

عاطل بالوراثة ؟

ربما .. بل هو بالتأكيد صحيح . ولكن هذا لم يكن مصدر تعاستي ، بل بالعكس مصدر نشوتي !

شباب وفراغ وثراء .. طالما ردد الناس فيما قول ابلغ قدامى الشعراء في انها مفسدة للمرء اي مفسدة ... وانا لم اشعر الا انها مسعدة للمرء اي مسعدة !

منذ أن كنت في السابعة عشرة والحسان يرامين على كما تترامى الفراشات على النور ، وكانت قلوبهن تتساقط في لظى شبابي المستعر ، ويحترقن واحدة بعد واحدة ، وانا لا ابالي . بل احد في ذلك لذة لا تعدلها الا لذة التهام مزيد من اسراب الفراشات الحسان ! ..

الحب ؟ .. الهيام ؟ .. الاشواق المتعبة والاحلام الصخام ؟ ..

تلك بضاعة المحرومين من الخطوة عند الباب ، بضاعة من لا يملكون من جمالهن الا الاحلام والتمني ولوعة العجز عن تحقيق رغباتهن المحرقة منهن . اما انا .. ! فلم يكن عندي وقت للرغبة والتمني . كانت يدي مملوءة باكثر مما تريد ، فليس امامي الا ان اختار من الوانهن واذواقهن فتنتهن ما اهوى . وكل مليحة بعذاق ...

وكان اجمل ما في تلك النشوات المتصلة شعوري بحريتي وبسطوتي . انا غير مرتبط باحد . غير مسئول عن شيء ، وغير مسئول امام احد . ابدا المصادفة وانا اعلم انها مصادفة عابرة ... وتكون خاطرتي وانا في اول لقاء ، وعندما تحترق شفتاي بأول قبلة ، ان هذه الحسناء لي كلما شئت ، وطالما شئت ، ولكني لست لها ! وفي استطاعتي ان اصرف نفسي عنها في اية لحظة فلا اتالم ، ولا تتالم . . . بل اني قد اتلذذ بذلك الاعراض عنها الى سواها . وما اكثر اللواتي كانت كل امنيتهن ان يحتظين من اذرعه

الاحـــــرياء ، ليطفئوا ظمأ التشوق والانتظار ... وانا وحدي الطـــائر المتحير

ولم اكن اتصور حياة في دنيـــا ولا اخرة تفوق هذا النعيم المتجدد المتعدد اللذات والمعاني ...

وفجـــاة تسربت الاسى الى حتى لتطردني منها . .

تسرب الى حتـــى ذلك ـ وانا لا ادري ـ اقصى السام والملل والضجر .. واصبحت كل حواء جديدة نســـخة معادة مكررة ، اعلم سلفا ما سيكون من حركاتها وسكناتها ، فلا تحـــرك لها نفسي ...

كل مملوك مرهود فيه ... مرغوب عنه ؟ ...

هذا ما كتب على ابن آدم ، وهـذا ما قرأته مسطورا بأحجـــاد عشرات وعشرات ممن رأيتهم على احصـــاني حتى مخنهن اعصابي ! .

الرجـل صيـــاد بالفطرة ... في تكوينه غريزة الصـــيد ... وأية لذة تبقى لصـــاد لا يسمع به الوقت لاطلاق بندقيته ، لأن الطيور تحر من تلقـــاء نفسها تحت قدميه ، وتحط على كتفيه ، وتتمسح بعنقه وخديه ؟

وتركب صيد الطباء من ســـــات الانس ، الى صـــيد الطير والوحش ، لا عد سبيلا لغريزة الصـــيد المركبة في اعماق رجولتي ... وهجرت النوادي والمجتمعات ، واقمت في الريف برهة .. والملـــل يقتلني ... حتى استكرني اصحابي واقاربي وانكروا امري ...

واخيرا لم تســـتطع عمتي ـ التي رعتني بعد وفاة والدي وانا صـــغير ـ أن تـــكت ، تحدثت الي وبحـــكمة التجربة والسن قالت لي :

ـ هذه يا مصطفى اعراض الزواج !

وفزعت ... فانا لم احترص على شيء حرصي على حريتي ، وكيف يمكن لمثلي أن يكون روحا ، محلصا ومرتبطا بامراة واحدة ، مهما كان جمـــالها وسحرها ؟ .

وابتسمت عمتي ابتسامة من تدري من امر النفس البشرية ما لا ادري .. وسكتت وتركتني لنفسي .

والعجيب ان سكوتها حرك ذهني . فصارت فـكرة الزواج تلح علي . . لماذا لا استمر ؟ لماذا لا يكون هدوء الزواج دواء للسام ؟ لماذا لا يكون قراع حياتي من الارتباط بانســـان هو سر آلامي ؟

ولكن كيف اثق بامراة ؟ كيف اثق بحواء واحدة وانا الذي عرفت ما لم يعرفه رجل عن المراة ؟ عرفت غـدرها واساليبها الماكرة في خداع الزوج والاب والاخ ، لتبدو شريفة وهي تتبـذل ، وتخلع كل عذار ، وتتجرد من آخـــر أثر للحياء بين احضان عشيق مثـــلي لا يحترمها ، ولا يبقى عليها ، ولا يعدها الا بمتعة عابرة كأنها كأس أو سيجارة .. نهايتها بعد لذة لاذعة الى قراع ، أو رماد ؟

ومرة اخرى تقدمت عمتي لتمد لي يد العون من حيرتها ... وهدتني الى فتاة ... بل الى برعم لم تتفتح اكمامه عن الوردة بعد ... فتاة بريئة طاهرة،

نقية كقطرة الندى فى الفجر الوليد ...

ودخلت تلك الأسرة خاطبا ...

واقبلت الفتاة البريئة بكل طهرها على فارس الاحلام الذى وقف ببابها فوق صهوة جواد ابيض ...

ولم يمض ـ انا الخبير بالنساء ـ أن ادرك كم هى ساذجة بريئة . ورقص قلبى فرحا ، وظلت مع الناس .

ـ المحظوظ محظوظ دائما وفى كل شىء حتما ! أجمل بنات حواء وانت اغرب ، واطهر بنات حواء واجملهن واوفاهن وانت متزوج !

ولكن براءتها وسذاجتها كانت عندى الثمن ألف مرة من جمالها الفتان .. وشبابها الفتان ... شباب بنت السابعة عشرة !

ودخلت البيت ، ورادت الاوامر ، وصرنا نخرج معا ، ونجتلس القبلات ولكننى كنت ـ انا الخبير بالنساء ـ ادرك تماما انها ليست قبلات المراة العاشقة ، بل قبلات الفتاة الساذجة المفتونة بحلم العرس ، والبيت والاستقرار السعيد ، والامومة . . . وكل ما تحلم به الفتيات الصغيرات ، من غير وقوع هائم بشخص محدود !

وتنبهت غريزة الصائد ، واستيقظ غرور العاشق القارى ..

وبدات اوقظ المراة فيهـا لتحيا حب المراة لرجلها المنشود ...

ولن يكون ذلك عسيرا على انا الخبير بالنساء ... !

واحسست بطعم قبلاتها يتغير ، فاشتد غرورى ، وثارت نفسى لدليل حاسم جديد على ان مصطفى هو الذى تحبه فتاتى لا الزوج الموعود ...

وذات يوم ، ورأسها الصغير فوق كتفى قلت لها ، وطعم قبلتى لم يزل يختلر أعصابها العذراء :

ـ انا لاأنام ليلى يا «سمية» ... من شدة الحزن والأسى !

ورفعت رأسها الجميل وحملقت فى وجهى بعينيها البريئتين ! . وقصصت عليها بصوت مذرب قصة ماض مثقل بالذنوب والعذاب، وان امراة خطرة من نساء ذلك الماضى تملك تحت يدها ما يكفل بالقائى فى غياهب السجون، وهى تتوعدنى اذا تزوجت وهجرتها أن تقضى على ... وانى لهذا لا أجد بدا من الانسحاب من حياتها !

وتعلقت «سمية» بعنقى وبكت ..

وفى اليوم التالى كانت هى التى سعت الى تناشدنى الا اتركها ، فهى لا يمكن أن تعيش بدونى ... وذرفت دمعة من دموع النعاسيح ، واظهرت عجزى عن اتمام ذلك الزواج ، حرصا عليها من تلويث سمعتها وسمعة أهلها .. لان مصيرى المحقق هو السجن والفضيحة ولن تتورع تلك المراة عن ذلك ... بل قد تقتلنى !

ـ انا لا أستطيع أن اعيش بدونك يا «سمية» ... ولكنى سأتحمل عذابى وحرمانى من اجلك ... من أجل شرفك ...

وبكت بين ذراعى ، وخرجت ..

ولم يمض يومان حتى عادت مصطفرة

مقرحة العينين من السهر ، والامتناع عن النوم ، وادمان البكاء ، ودفنت رأسها بين يديها وهي تقول :

— ليس من الضروري أن تتزوج يا مصطفى ... ولكني لا أستطيع أن أعيش بدونك ... أنا لك ... بزواج ... أو بغير زواج !

وكان هذا حسبي كي يشفي الصائد .. الدون جوان في أعماقي . ولكي أعلم انني تزوجت امرأة تعشقني لشخصي أكثر من حرصها على كل اعتبار آخر ...

وواعدتها على الفور ، كي أدبر لها أسلوب الهرب ، لنقيم في مكان مجهول، أزورها فيه خلسة ... بينما أهلها يبحثون عنهما وأبحث أنا معهم عن عروسي المفقودة ...

ولم تفكر فيما يصيب أبويها من حزن وعار ... لم تفكر في شيء ...

وارداد غروري انتشاء ..

وفي الموعد المضروب ، كنت أدخل بيت أبويها وأطالب بتعجيل القران ، وهمست لها أنني سويت المسألة مع تلك المرأة ، واشتريت منها الوثائق التي تهددني بها ...

وهل أنا بحاجة لأحدثكم عن سعادتي الزوجية ؟ ...

انها لا يمكن أن توصف .. لا يمكن .. فليس لها نظير ...

زوجتي أطهر زوجة ... وأجمل وأوفى زوجة ... وأحب زوجة ... انها تصدقني ، وأنا أعبدها !

ولكنني مصدقت ... تعس ... أحرق سعادتي احتراقا ؛ ولا أجد لشيء طعمها ... حتى ولا لحب زوجتي !

اهي الغيرة ! ..

ربما ... ولكنها غير ذات موضوع ... ليس لي غرام أغار منه في الماضي أو الحاضر ..

ومع هذا فانا غيور، تكاد تقتلني غيرة أشد من غيرة عطيل !

خطئي الذي لا نظير له جعلني أكتب جميع الأبرياء وأنا أعرف وأكتب أيضا هذه العذراء التقية ... أحيتني ووهبتني كل شيء روحا وجسدا ، من غير ذلك العقد ...

صحيح أنني رفضت ... وكفاني منها الدليل على الحب ... ولكن مع هذا ... لم تسقطكم سقطت النساء من قبلها بسبب خارج عن ارادتها .. لان الرجل الذي أغواها تعهد ، لا لأنها تنبعت !

هذه المعوى أنا ... ربما فعلت هذا ... وأنا أعلمه جيدا ... ولكنه ليس أنا ... أنا الآن روح طيب يريد روحته ذات حصانة على الغواية ... أما الذي أغواها فعلى ماحق لا عهد له ولا ضمير ولا خلق !

روحتي سقطت أمام غواية ماحق. ولا يقلل من خطورة هذه الحقيقة أن هذا الماحق كان أنا ... ولا أستطيع أن أنفي من ذهني هذا الخاطر المزعج الذي يسم كياني كله ، كلما رأيتها تنفلت مني ، وتذوب تحت أنفه لمساتي ـ التي أتكلفها تكلفا ـ وأنا ساخط معذب ، من غير أن يكون لي أدنى حق في تبرير سخطي وعذابي ..

أنا الغيور بلا عريم ..